العنـــاية بـــالمخطـــوط
فـــي وادي ميـــزاب

إعداد:

أبو ياسين محمد بن أحمد إمناسن*

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة:

تعد المخطوطات أهم وعاء ثقافي ينقل حضارة الأمم جيلا عن جيل عن طريق التدوين، فهو الوعاء الأول لتواصل الثقافات والآراء بين العلماء وأهل العلم.

لذا فقد بات من الضروري الاعتناء البالغ به حتى يحفظ الهوية الثقافية للمجموعات الحضارية، ومما لا شك فيه أن ضياع أي مخطوط سوف يسبب فقدان حلقة مهمة في تاريخ الأمم في مختلف الميادين. لهذا الأمر ولأسباب كثيرة سخرت المؤسسات العلمية الحكومية وغير الحكومية الواعية بأهمية المخطوطات مجهودات كبرى للحفاظ عليها وخصصت له الأموال الطائلة والتجربة العلمية العالية والتكنولوجيا الحديثة المتطورة.

إن محطة وادي ميزاب تعتبر من أهم المحطات العلمية في الوطن الإسلامي عموما وفي الجزائر خصوصا لما تزخر به من مخزون للمخطوطات - يقارب 8000 مخطوط- موزعة على القصور الثمانية لوادي ميزاب : تغردايت، وآت امليشت، وآت ازجن، وآت بنور، تاجنينت، وبريان، والقرارة ووارجلان. وهذا الكم الهائل يدل دلالة واضحة على ما كانت تزخر به المنطقة من حركة علمية

---

*جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث.

نشيطة عبر القرون، إن هذه المخطوطات تعتبر المرجعية الفكرية الأولى التي يستمد المجتمع منها الجوانب الاجتماعية والثقافية والتاريخية للممارسات اليومية وهي شاهد حي على التطور التاريخي والاجتماعي للأمة وهي في نظر أصحابها أو ملاكها الكنز الوحيد والدليل على ثبوت الهوية التاريخية والاجتماعية لما تمثل من صلة وثيقة بالتأثير وتأثر العقل الإنساني ببيئته.

1) التنوع العلمي :

والملاحظ لهذا المخزون الهائل يجده متنوعا في مواده ومواضيعه، فقد شمل- من حيث المادة العلمية – كل مجالات التأليف.

أما من الناحية الإيديلوجية فأغلب الكتب تنسب إلى علماء المدرسة الإباضية وذلك راجع إلى المنطقة التي انتهوا إليها.

2) مساهمة المخطوطات في تنمية المحيط:

وكما لا يخفى أن محتوى المخطوطات قد ساهم مساهمة فعالة في تنمية المحيط وتفعيل الحركة فيه، فالمجالات العلمية المختلفة التي تناولتها هذه المخطوطات قد استفاد منها الباحثون في إجلاء كثير من المشاكل المطروحة على الساحة العلمية وإيجاد الحلول المناسبة لها ولنضرب لذلك أمثلة حية:

← القضاء:

لقد كان للمحاكم بالمنطقة نشاط حيوي في توطيد العلاقات بين أفراد المجموعة في صدور الأحكام، وكان للمراجع المخطوطة الدور الكبير في مراجعة الأحكام ومناقشتها وقد حملت إلينا تاريخا ضخما لحركة القضاء التي تعبر تعبيرا مباشرا عن الصورة التي كان عليها المجتمع سابقا. وبما أن لكل منطقة عادتها وأصولها فإن هذه المراجع تعتبر اليوم أعز منفذ لإيجاد الحلول للمشاكل التي تواجه المجتمع.

← العمران:

لقد كان لحركة العمران في منطقة وادي ميزاب نشاط بالغ الأهمية حيث كان يستجيب لمتطلبات المنطقة وخصوصياتها من حيث استراتيجية الموقع وكذا الوضع المناخي للمنطقة، فجلب النسيج المعماري أنظار كثير من العلماء والباحثين فكتبوا عنه دراسات مستفيضة تناولوها بالبحث والتدقيق، ومما تجدر الإشارة إليه هو أن النسيج العمراني بمنطقة وادي ميزاب كان له أرضية يستمد منها القواعد العمرانية، وهو تأليف الشيخ أبي العباس أحمد بن بكر الفرسطائي النفوسي المتوفى سنة 504هـ/ 1110م المعنون ب:" القسمة وأصول الأرضين".

ويعتبر هذا التأليف المرجع الوحيد في العمارة الإسلامية في العصر الوسيط في شمال إفريقيا حيث تناول جل مناحي الحياة العمرانية فجاء على إثره النسيج العمراني بوادي ميزاب وقد اهتم بالدراسة والتحقيق والتعريف بهذا المؤلف مجموعة من الباحثين كل على حسب اختصاصه، وقد أمن هذا التأليف القواعد العمرانية المتعارف عليها فأنشئت القوانين والأعراف التي بها ينضبط النسيج العمراني سواء داخل المدينة أو في الواحات، ولا شك أن عمارة وادي ميزاب كانت قبل هذا المؤلف بسنين ولكن مهما يكن فقد تأثر النسيج العمراني بهذا المرجع، وتظهر العلاقة واضحة بين الواقع وهذا التأليف.

وقد ألف بعد هذا المخطوط كتابات معتبرة موضحة بعض الجوانب في العمران ومتأثرة بكتابة الشيخ أبي العباس. أمثال:

- التكميل لما أخل به كتاب النيل للشيخ عبد العزيز الثميني.
- أصول العمارة للشيخ الحاج امحمد اطفيش.

وكلا التأليفين استفاضة في القضايا المستحدثة في العمران والعرف العمراني.

← الميدان الاجتماعي:

إن جل المخطوطات التي ألفها علماء المنطقة لها توجه ديني يحفظ كيان الفرد من الانحلال والانحراف فقد حاولت هذه التآليف أن تضبط المجتمع على نسق واحد وتحدد العلاقة بين أفراده وكذا بين الهيئات العرفية التي تحكم هذا المجتمع، فالمراجع التي بقيت بين أيدينا أعطت الصورة التي ينتهجها المجتمع في جميع ممارساته الاجتماعية المختلفة فإليها يرجع الفضل في محاولة الضبط الاجتماعي وتحديد العلاقة بين الأفراد والمؤسسات في المجتمع.

← تقسيم مياه الأمطار بالمنطقة:

من أهم المجالات الحيوية البارزة في منطقة وادي ميزاب مجالات تقسيم مياه الأمطار، إذ لا يخفى عليكم أن منطقة وادي ميزاب صحراوية وجافة ذات أمطار موسمية غير منتظمة لذا فقد خطط سكان المنطقة استغلال هذه المياه النادرة التي يصل معدل القحط فيها من سنة إلى سنتين وذلك لتأمين مياه الآبار الجوفية التي تغذي فلاحة المنطقة في زمن عدم توفر الآبار الارتوازية.

وقد كشفت لنا المخطوطات المتناثرة هنا وهناك – وبعد جهد مضن لاكتشافها – حركة هذا المجال الحيوي في التنمية البيئية فقد عرفنا التاريخ وأعراف تقاسيم المياه وأنظمة السقي والحدود المتعارف عليها بين منظمة الأمناء – الذين بيدهم يتم تسيير هذا المشروع – والمستفيدين منه وعلمنا ما

لكل فرد من نصيب في مياه الأمطار، وعلاقة هذه المنظمة بغيرها من المنظمات العرفية فأُصلت كثير من الأمور واكتشفت كثير من خبايا وأسرار هذا النظام وذلك لاستشراف المستقبل وتطوير مجالاته.

ومن هذه النظرة البسيطة لبعض مجالات الاستثمار البيئي أو الاجتماعي ندرك مدى أهمية المخطوطات في التنمية المحلية لمصالح المجموعة أو الفرد، وكذا الحفاظ على هوية المجتمع وعلى نسقه المتميز. لذا فإن مجال استثمار مضامين المخطوطات رهين بالحفاظ على المخطوطات نفسها والرقي بها إلى مجالات البحث العلمي كوعاء ومحتوى.

3) الحالة الراهنة للمخطوطات:

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المعايير العلمية للمحافظة على المخطوطات وتأمينها فإننا نجد أن أغلب الخزائن والمكتبات لا ترقى إلى المستوى المطلوب لذلك. فقد تعرضت هذه الكنوز للاندثار بفعل عوامل الزمن التي ساهم الإنسان فيها بسبب مباشر أو غير مباشر ونذكر منها:

أ) عوامل الإنسان المباشرة:

1- السذاجة في التعامل في كثير من الأحيان وعدم الحرص على التداول والإعارة الخارجية مما تسبب في زوال كثير من الخزائن.

2- انتقال الخزائن من شخص إلى شخص، ووقوع المخطوطات في أيدي من لا يعرف لها شأنا بسبب عملية التوارث.

3- الصراعات الداخلية بين ملاك الخزائن أو حجبها عن الباحثين بدعوى عدم المسؤولية الكاملة عليها.

4- السرقة المباشرة وغير المباشرة.

5- استعمال حق السلطة في الاستحواذ على المخطوطات على ملاكها الضعفاء.

ب) العوامل غير المباشرة (الطبيعية):

1- عدم توفر الظروف المناخية ساعد على تكاثر الحشرات والبكتيريا التي تأتي على المخطوطات.

2- تذبذب المناخ في درجات الحرارة الذي كثيرا ما يؤدي إلى تدهور ورق المخطوط وانكساره.

3- الحرائق المفاجئة.

4- الفيضانات التي تحدث من حين لآخر.

5- تسرب المياه في البناية مع ترك الخزائن بدون مأمن.

هذه بعض الأسباب المباشرة وغير المباشرة.

هذا وإن ظروف تلف المخطوطات وضياعها في العالم تتحد فيما بينها فهي ظروف تتشابه في كل دول العالم، والمشتغلون بالمخطوط كلهم يرون نفس النظرة والطروحات لذا فقد حاول الخبراء أن يوحدوا مناهج حفظ المخطوط ويوفروا أقصى الشروط المناسبة لتأمين تلف المخطوطات.

4) دور جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش في تأمين المخطوطات:

ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى تحرك ضمير جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش للحد من هذا النزيف الذي يأتي على كنوز الإنسانية فيفنيها، وإيمانا أن عوامل الزمن لا ترحم ولا تنتظر التفكير والعمل البطيء ولنفس الأسباب أيضا أنشأت الجمعية لوضع خطة طويلة الأمد مستعينة بما لديها من طاقة فقد حاولت الحضور في الميدان على قدر مجهودها، وهي تكافح من أجل ترقية هذا التراث الحضاري الذي تعتقد أنه ملك الإنسانية قبل أن يكون ملك الأفراد، والعلم ليس حكرا على مجموعة أو أفراد بل لجميع من يطلبه.

وقد اعتمدت " جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث " عام 1995، من أهدافها ما يلي:

1) العمل على اكتشاف تراث وآثار المنطقة.

2) إنقاذ وصيانة وحفظ المخطوط بالوسائل العصرية: الميكروفيلم، التصوير الرقمي، الإعلام الآلي...إلخ.

3) العمل على إنشاء مكتبة نموذجية للمخطوطات.

4) حفظ وتعريف تراث وآثار المنطقة باستغلال جميع الوسائل السمعية والبصرية.

5) التبادل العلمي واستغلال جميع الخبرات الوطنية والدولية في هذا المجال.

وقد جعلت من أولويات عملها تأمين التراث المخطوط في وادي ميزاب وصيانته عن مختلف العوامل المؤثرة، فدأبت - منذ نشأتها - في انتهاج أمثل السبل للوصول إلى مبتغاها، وفي اتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق هدفها المنشود.

وفي هذا الصدد قامت الجمعية بعملية بحث واسعة عن أفضل كيفية تحفظ بها المخطوطات، فكانت نتيجة البحث أن اهتدت - بفضل الله - إلى طريقة التصوير بآلة الميكروفيلم و التصوير الرقمي.

وبعد استكمال جلب الأجزاء الضرورية لمحطة الآلة المذكورة بات متوفرا لدى الجمعية المؤهلات التقنية والآلية لمباشرة عملية التصوير، هذا ومما أفادته تجربة العمل في مجال المخطوطات أن المشروع بمختلف مراحله لا يكون عملا سويا وخطوة حضارية في خدمة تراثنا بحيث يغني أجيال الخلف عن التفكير في مثله إلا إذا كان إنجازه على أيدي أخصائيين أكفاء مدركين لفداحة المهمة وعظم المسؤولية.

وأمام هذه المجهودات المتواضعة التواقة إلى إبراز كنوز المخطوطات التي تساهم في زيادة وتوسيع التراكم المعرفي تبقى ضئيلة أمام تحديات العولمة الثقافية وأمام ثورة المعلومات، حيث لم ترق إلى المستوى المطلوب لرفع التحدي ومشاركة الثقافات العالمية، وهذا راجع إلى نقص الموارد المالية التي بها نستطيع تذليل كل العقبات وتوفير الأجواء العلمية اللازمة لذلك.

وإن الجمعية لتأمل في تطوير هذا المجال وذلك بـــ:

أ) تدريب الموظفين العاملين:

أمناء مكتبات يتخذون قرارات حول أولويات الحفظ.

- مسؤولين عن الحفظ يتم تدريبهم على التحكم بالبيئة والمواصفات المطلوبة وأعمال الحفظ وتوفير الحماية المناسبة للمواد.
- تدريب المسؤولين على تقييم المجموعات.
- تدريب على التصوير الإلكتروني لمشروعات إعادة التشكيل والذي يتطلب ذلك نقل المخطوطات بتخزينها آليا في قاعدة بيانات أو معلومات وإيجاد نسخة مدخلية أو مفتاحية.
- إعطاء الموظفين المتدربين أولوية في استيعابهم ضمن مشروعات دولية.

ب) إعادة تشكيل الأوعية:

- تطوير نظام ميكروفيلمي جيد يشمل إنتاج الأفلام والحصول عليها والتحكم الببليوغرافي.
- الشروع في برنامج طويل الأمد لتصوير جميع المخطوطات ومواد الأرشيف لتكون في متناول أيدي الباحثين.
- الشروع في برنامج لجعل المخطوطات متوفرة على أقراص مضغوطة.

ج) إنشاء وحدة خاصة بمخطوطات منطقة الصحراء في شبكة المعلومات:

- إنشاء شبكة معلومات إلكترونية بين المكتبات وخزائن المخطوطات العلمية الأكاديمية ومراكز الأبحاث لتوفير الخدمات مباشرة للباحثين.

❋ربط هذه الشبكة مع شبكات الأبحاث والشبكات الأكاديمية الدولية الأخرى في جميع أنحاء العالم.

د) الصيانة والترميم والحفظ:

❋إنشاء محطة لترميم المخطوطات وصيانتها.
❋توفير الخزائن العلمية لحفظ المخطوطات.
❋إجراء فحوصات مستمرة لخزائن الكتب.

هـ) الطباعة والنشر:

❋إدخال أسلوب التعريف بالمخطوطات وأهميتها في البرامج الدراسية لاعتبارها عنصرا من عناصر المجتمع.
❋طباعة ونشر ما حقق وما درس من هذه المخطوطات للاستفادة العلمية.
❋جوائز تشجيعية لأحسن تحقيق وتحفيز الدارسين.

5) المخطوطات ومشروع دلتا:

هذا وبعد اطلاعنا على مشروع دلتا الطموح إلى التنمية الشاملة في المحيط الواحد بجميع خصوصياته فإن موضوع المخطوطات ليحل مكانة معتبرة في زرع الوعي الثقافي بجميع خصوصيات المجتمع، إذ المخطوطات هي المراجع الوحيدة في امتداد العطاء العلمي لتطوير المنطقة إذا ما استغلت أحسن استغلال ومع العلم أن هذه المخطوطات تحتاج إلى تظافر جهود كثيرة للرفع من مستواها وجعلها تواكب العصر، وتستطيع المخطوطات أن تقدم للمجتمع خدمات جليلة مثال ذلك:

❋تشريع قوانين لدى المحاكم أو المؤسسات الحكومية عند وجود الفراغ القانوني للقضايا المحلية أو خصوصيات المجتمع في جميع المجالات.
❋تساعد المخطوطات الباحثين والدارسين وتعتبر أهم مرجع في كثير من الدراسات الحديثة.
❋تحديد المجال العقاري لكل قصر من القصور وتبيان ما هو عام وما هو خاص.

وفي الأخير أرجو أن أكون قد وفقت في طرح هذه المداخلة ومحاولة إبراز أهمية المخطوطات في التنمية المحلية الشاملة ووضعها في مشروع دلتا الطموح والسلام عليكم.